كيف كانت:

العلاقات الإسلامية اليهودية
فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

بقلم
الدكتور/ ابراهيم عبد الرحمن عتلم
أستاذ م. الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين بالمنوفية
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد رب العالمين .. جعل العاقبة للمتقين... ولا عدوان إلا على الظالمين... الذين تنكبوا الصراط المستقيم... من المغضوب عليهم ... الضالين المكذبين.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بأحسان الى يوم الدين.

وبعد

فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن لايعيش الإنسان وحده بمعزل عن مجتمعه، فلا يستطيع أن يحقق وحده ضرورات الحياة اللازمة له ولا غنى له عنها... ومن هنا كان التعامل بين أفراد المجتمع لتبادل المنافع واستمرارية الحياة..

واليهود من فئات المجتمع التى لا تنفصل عنه... ولكنها فئة شاذة فى التعامل مع الآخرين حيث يعتبرون أنفسهم... فوق الجميع حتى صور لهم تفكيرهم المريض أنهم" شعب الله المختار" أو كما سجل القرآن الكريم كتاب الخالق عنهم... أنهم قالوا:" نحن أبناء الله وأحباؤه ".. ورد الله عليهم هذه الفرية بقوله .. قل فلم يعذبكم بذنوبكم.. بل أنتم بشر ممن خلق ..[1] وسجل أنانيتهم وظلمهم لغيرهم فى قوله...» .. ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل... » يستبيحون كل شئ من الغير لهم من نفس ... ومال... وعرض... وغير ذلك، وقد رد الله عز وجل عليهم ذلك أيضا بقوله سبحانه «... ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» [2] وبسبب هذه الأفتراءات وذلك الشذوذ فى التعامل عاقبهم الله تعالى وأثبت القرآن الكريم ذلك:« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا... وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل.....[3]

١- سورة المائدة من الآية ١٨. ٢- سورة آل عمران الآية (٧٥).

٣- سورة النساء الآيتان (١٦٠-١٦١).

فياترى كيف كانت العلاقات الإسلامية اليهودية فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم؟

هذا مانريد إلقاء الضوء عليه من خلال ذلك البحث.. تسترجع فيه الأحداث من قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ومبعثه...

١- كيف قدم اليهود إلى جزيرة العرب عامة وتوطنهم فى يثرب خاصة مع بيان أحوالهم بعد قدومهم : إجتماعياً... واقتصاديا... وسياسيا... ودينيا.

٢- بيان أسس العلاقات ومبادئها فى الإسلام بين المسلمين، وبين المسلمين وغيرهم من اليهود خاصة : فى حال السلم، وفى حال الحرب والمواجهة.

٣- وفيها ترصد كل جولة من جولات الصراع فى التعامل بين الدين الإسلامى ورسوله الكريم والعصابات اليهودية التى كانت موجودة فى الجزيرة العربية.. والتى ترسم صورة مشرقة لسماحة الإسلام ونبيه وتسامح المسلمين وحرصهم على الأمن والسلام والوفاء مع ماكان عليه اليهود من التمرد ونكث العهود وتدبير المكائد..

وفى نفس الوقت الحزم والصرامة فى قمع المتمردين الذين يعلنون نقضهم للعهد .. ويتعاونون مع الأعداء وإلحاق الأذى بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، عندما تتأزم الأمور بين الطرفين وتحدث المواجهة بأسبابها.. وفى ذلك يتجلى عدل الإسلام وأهله فى معاملة اليهود قبل الحرب... وفى أثنائها.. وبعد الانتهاء منها.وإبراز مايترتب على كل مواجهة من نتائج... كل ذلك لتكون أساسا فى التعامل لمن يأتى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وقتنا الحاضر وإلى أن تقوم الساعة..

وأرانى أسلمت نفسى إلى تأمل مستغرق.. طويت فيه أبعاد الزمان والمكان إلى مسرح الأحداث الكبار التى عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وترجموا مواقف لم تكن خططا موضوعة. وليست من صنع البشر ولكن تكلفت بها العقيدة الحقة وكانت بتدبير من خالق البشر، وسطرت لنا من المواقف التى تربط الماضى بالحاضر.. الماضى الحى.. والحاضر المشهود...فما تتجلى رؤية الأمس إلا فى غمرة من

ظلال اليوم... ولانستروح عطر التاريخ لتلك الحقبة، إلا مشوبا بأنفاس الواقع الذى تعيشه أمة الإسلام فى صراعها مع أعداء النور وحزب الشيطان...« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا... »[١] لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا... اليهود والذين أشركوا....[٢]« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون »[٣] وبالله التوفيق هو حسبنا ونعم الوكيل.

دكتور / ابراهيم عبد الرحمن عتلم

أستاذ مساعد الدعوة

كلية أصول الدين المنوفية

جامعة الأزهر

١- سورة البقرة من الآية رقم (٢١٧).

٢- سورة المائدة من الآية رقم (٨٢).

٣- سورة يوسف من الآية رقم (٢١).

كيف وصل اليهود إلى المدينة

جدير بنا قبل الحديث عن العلاقات الإسلامية اليهودية ، أن نلقى الضوء على قدوم اليهود إلى الجزيرة العربية بعامة وإلى يثرب بصفة خاصة، وتوضح جانبا من نشاطهم، وأحوالهم قبل الأسلام ، لتكون الصورة واضحة.

تحدثنا الكتب التاريخية أن اليهود قدموا إلى الجزيرة العربية، وحلوا بيثرب قبل الهجرة النبوية بمئات السنين وذلك:« بعد الحرب التى وقعت بينهم وبين الرومان سنة ٧٠م وانتهت بهزيمتهم وتفرقهم بين الأمصار وتشتتهم فى بلاد العالم فحل فريق منهم فى جزيرة العرب واستوطنوا« يثرب» وتجمع هؤلاء اليهود فى « يثرب» فى ثلاث قبائل كبرى هى :بنو قينقاع.. وبنو النضير... وبنو قريظة، وتفرع من هذه القبائل فروع كثيرة.

فمن فروع بنى قريظة بنو هدل، وبنو زنباع، ومنهم يهود بنى عوف، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى ثعلبة، وبنى حنيفة، وبنى الحارث، وغيرها ، وقد تفرقت القبائل وفروعها فى وسط يثرب ونواحيها ، فمنهم من أقام بالعالية بوادي بطحان وهم بنو النضير، ومنهم من أقام فى منطقة مهزور بجنوب المدينة وهم بنو قريظة، وأما بنو قينقاع فكانوا يقيمون فى محلة خاصة بهم وسط يثرب.[١]

وكانت أماكنهم وقراهم محصنة، ويعيشون فيها متكتلين كما أشار القرآن الكريم «لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.» [٢]« وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله..»[٣] وقد صور ذلك الشيخ محمد أبو زهرة في كتابة خاتم النبيين نورده بإيجاز حيث

١- وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى ص ١١٦، تاريخ اليهود فى بلاد العرب د. إسرائيل ولفنسون ص٩.

٢-سورة الحشر من الآية رقم(١٤).

٣- سورة الحشر من الآية رقم(٢).

يقول:« كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الاضطهادات كاليهود الذين فروا من التتار والرومان من بعدها إلى بلاد العرب حيث وجدوا الملاذ إبتداء في أرض اليمن... وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين، وقد عاشر اليهود الأوس والخزرج في موطنهم الأصلي باليمن،ولما هاجر أولئك الوثنيون إلى يثرب هاجر اليهود أيضا إلى ما حول يثرب ، فهاجر بنو النضير وبنو قريظة، وبنو قينقاع وخيبر ولم يندمجوا في الشعب العربي بل اتخذوا حصونا تحتويهم حيث أقاموا وانتجعوا الخصيب من الارض فكان لهم النخيل والتمر في يثرب .. وكانوا كشأنهم أثرين يحبون أنفسهم ولا يتعاملون مع العرب، وإن تعاملوا معهم ينجسونهم، وخانوهم عهودهم كما قال الله تعالى « ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائما،، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل.. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون[١] فالعرب الذين آووهم وأنزلوهم أبرواهم عليهم المعاملة الطيبة، ونظروا إليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون، والأمي يؤكل حقه في زعمهم الباطل ومنطقهم الأثيم، وجانبوهم وتحيزوا في حيز دونهم ، وعاشوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون»[٢]

وبهذا استقرت أوضاع اليهود في يثرب ، وكونوا مع زعماء العرب علاقات ومحالفات ، وكان بعض زعماء العرب يشكل فرقا منهم لحراسته مقابل إتاوات يأخذها اليهود منهم كل عام، كما كانت لهم أماكنهم الخاصة بعبادتهم وتعليمهم تسمى « المدارس» يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم كما كانت لهم أعيادهم الخاصة بهم وتشريعاتهم التي تنظم أمور دينهم ودنياهم.

أحوالهم الاقتصادية:-

أما عن أحوالهم الاقتصادية، فقد كان اليهود اكثر غنى وأموالا من العرب ،

١- سورة آل عمران من الآية رقم(٧٥).

٢- خاتم النبيين ص ٥٦ ، ٥٧ وانظر أيضا صفحات ٣٤٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦.

وكانوا يتحكمون في كثير من الجوانب الاقتصادية حيث كانت الصناعات فى أيديهم، وكانت عامة بنى قينقاع« صاغة»[1] وكانوا أكثر طوائف اليهود مالا، ولهذا الانتعاش الاقتصادى كانوا يقرضون أهل يثرب الأموال بالربا والرهن وكانوا حرصين على استمرار سيطرتهم الاقتصادية بأي شكل ، ولهذا كانت المادة تتحكم فى جميع علاقاتهم ، فإن كان فى العلاقة كسب مادى ومنفعة شخصية حرصوا عليها، وإن تعرضت المصلحة المادية لأى خطر أقاموا الحرب وأشعلوها بين القبائل العربية ليضعفوا فتبقى لهم السيادة والسيطرة الاقتصادية.

وكان لهذا الأسلوب تأثيره فتهود بعض العرب بل وصل الأمر ببعض من كان لا يعيش له ولد أن ينذر إذا ولد له ولد وعاش أن يهوده... فكان فى المدينة أيضا عدد من يهودالعرب الذين دخلوا اليهودية بهذه الطريقة أو غيرها.

وكان بعضهم يشتغل بالتجارة والزراعة حتى نستطيع القول بأنهم سيطروا على جميع المناشط الاجتماعية والاقتصادية علاوة على التأثيرات الدينية.

يقول الأستاذ عزة دروزة :«عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى فى بلاد الحجاز والشام، واحتكوا بهم وأخذوا عنهم كثيرا من الأفكار والمعارف ، ومنهم من دان باليهودية والنصرانية وتضلع باللغة العبرانية، واطلع على ماعند اليهود والنصارى من كتب، وقد عرفوا كذلك ماكان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق فى الأمور الدينية والمذهبية، وكان لكل ذلك صدى وأثر فى نفوسهم وأذهانهم[2]. ثم يقول : « وكان العرب يعتمدون على علمائهم ويثقون بهم ولذا احتج الله تعالى على المشركين بمعرفة علماء بنى اسرائيل بصدق القرآن الكريم كقوله عز جل :« أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل [3] وقوله سبحانه :« الذين أتيناهم

١- يصوغون الذهب، ويتاجرون فيه.

٢- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم/ محمد عزة دروزة جـ١ ص ٣٢٧.

٣- سورة الشعراء (١٩٧).

الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. »[١] ثم يقول « ومن الطبيعي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة... ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضا، وإذ كان بينه وبين بعض الكتابيين صلة وُدٍّ ومبادلة عطف وتصديق»[٢] . ومن هنا وقف اليهود والنصارى من الدعوة المحمدية منذ البدء موقفا طيبا بل إن بعضهم قد آمن واتبع كما في قوله تعالى :« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون»[٣]

تلك صورة سريعة عن صلة اليهود بالجزيرة العربية وأحوالهم فيها قبل الأسلام[٤].

مبادئ الإسلام في العلاقات :

قبل الحديث عن العلاقات الإسلامية اليهودية وأطوارها نوضح في إيجاز أبرز مبادئ الإسلام في إنشاء العلاقات بين المسلمين وغيرهم لنرى إلى أي مدى تسامح الإسلام وأهله وإلى أي حد كان غيرهم متعسفين.

من المعلوم أن الإسلام دين الله سبانه ورسالته إلى خلقه أجمعين بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم فكانت بعثته اللبنة الأخيرة في زوايا هذا البناء الشامخ، فجاءت شاملة وعامة وصالحة لكل زمان ومكان، يتضح ذلك من مبادئها التي أرستها للعلاقة بين الناس وفي مقدمة ذلك :

١- سورة البقرة من الآية (١٤٦).

٢- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم/ عزة دروزة ص ٣٣٦.

٣- سورة الاعراف الآية (١٥٧).

٤- السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ١٣٨/١٣٢ وهامش ص١٣٣.

١- أن الناس جميعا عباد الله هو خالقهم... ورازقهم... ومدبر أمورهم.. ومصرف أحوالهم.. بيده مقاليد الأمور كلها... وهو على كل شئ قدير.. لاراد لقضائه، ولا معقب لحكمه، هو المعز وهو المذل وهو المعطي والمانع. يتجه الجميع إليه ابتغاء مرضاته... والكل أمامه سواء فلا فضل لأحد على أحد إلا كما قال سبحانه:«« إن أكرمكم عند الله أتقاكم. »»[1] وهو سبحانه رب العالمين.. لارب بني إسرائيل فحسب كما يزعم اليهود ، وليس له ولد كما يدعون هم والنصارى:« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه..»[2].

٢- الأخوة لجميع الناس.. لأن أباهم واحد هو "آدم" وأمهم واحدة هي " حواء" قال سبحانه : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء.»[3] لذلك يتعارفون ولايتناكرون، ويتعاونون ويتحابون، ولا يتخاصمون ولا يتدابرون لقوله عز وجل :« ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا..»[4] وقد أعلن الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم في أكبر تجمع إسلامي في حجة الوداع في خطبته الجامعة بعدفات : « أيها الناس إن ربكم واحد.. وإن أباكم واحد... كلكم لآدم وآدم من تراب.. ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، .. ألاهل بلغت، اللهم اشهد...»[5].

فالمسلم أخو المسلم وكذا كل إنسان يهوديا كان أو نصرانياً أو غير ذلك.

٣- الإنسان- أيا كان- في الإسلام له كرامته وسموه وعلو قدره حيث قال الله عز وجل:« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»[6] ونصوص أخرى كثيرة توضح ذلك.

١-سورة الحجرات من الآية رقم(١٣). ٢- سورة المائدة من الآية رقم(١٨).

٣- سورة النساء من الآية رقم(١). ٤- سورة الحجرات من الآية رقم (١٣).

٥- القول المبين في سيرة سيد المرسلين د/ الطيب النجار ص٣٣٩.

٦- سورة الاسراء الآية رقم(٧٠).

ويبن ذلك الرسول الكريم في أكثر من موقف فمن ذلك ماروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: " مر بنا جنازة فقام لها النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا.... فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودى، قال صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم الجنازة فقوموا إن الموت فزع"(١).. يتضح من ذلك أن الإنسان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرم حيا وميتا، مسلما أو غير مسلم. وقوله صلى الله عليه وسلم:" من لا يرحم لايرحم، إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء"(٢)

فأين هذا ممن داسوا كرامة الإنسان.... وسفكوا دماءه.... وانتهكوا عرضه.... وأكلوا ماله بالباطل فى الشرق والغرب على السواء؟

٤- اهتم الإسلام بالأخلاق والتربية الخلقية حتى تكون أساسا فى التعامل بين الناس وجاءت النصوص فى القرآن الكريم والسنة المطهرة فأولت هذا الجانب عناية فائقة من ذلك قوله سبحانه:« إن الله يأمر بالعدل والإحسان.. وإيتاء ذى القربى... وينهى عن الفحشاء... والمنكر... والبغى... يعظكم لعلكم تذكرون"(٣) ويكاد الرسول صلى الله عليه وسلم يحصر بعثته... وأهداف رسالته في مكارم الأخلاق فيقول:«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(٤) فالصدق والأمانة والعدل والوفاء والإحسان والبر والعفو والكرم والتسامح والشجاعة والعفة إلى غير ذلك كلها أخلاق سامية ربى الإسلام عليها أبناءه... والتزمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانطلقوا بها إلى مشارق الأرض ومغاربها يعاملون الناس فى ضوئها... ويقيمون علاقاتهم مع الناس على أسس منها .

٥- الإسلام دين السلام يرسى قواعده بين الناس، ويقيم علاقاته معهم على أساسه،

١- عون البارى شرح صحيح البخارى جـ٢ ص ٦١٢.

٢- عون البارى جـ٦ ص ١٣٩.   ٣- سورة النحل الآية (٩٠).   ٤- رواه مالك فى الموطأ.

ولذلك لا يلجأ الإسلام فى حل المشاكل إلى الحرب إلا حين تعجز الوسائل السلمية الأخرى وتصبح الحرب ضرورة لا بد منها.... ومع هذا فإذا قامت الحرب فى ضرورة فإن باب السلم مفتوح يدعونا الله سبحانه وتعالى إليه ويأمرنا به إذا طلب المحاربون ذلك قال عز وجل:" وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين"[١] ثم قال:" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"[٢]

وحول هذه المبادئ يقول الدكتور يوسف القرضاوى مستشهدا بما قاله"غوستاف لوبون فى كتابه- حضارة العرب- الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم" ثم يقول: لقد احترمت الشريعة عقائد الآخرين ورفضت الإكراه فى الدين رفضا باتا، وأعلن القرآن هذه الحقيقة:" لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى"[٣] وخاطب الله رسوله بقوله:" أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"[٤] ولهذا قرر المؤرخون بكل يقين أن المسلمين لم يجبروا شعبا ولا فئة من الناس على اعتناق الإسلام بحال، وقد كانوا قرونا عديدة يملكون من القوة والنفوذ ما يغريهم بذلك لو لا سلطان الشريعة فوق رءوسهم .. ووازع الإيمان فى صدورهم.

ثم يستشهد أيضا بما قاله- روبرستون-:"إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا

١-سورة الأنفال الآيات/٦١/٦٢.
٢- سورة الممتحنة الآيات ٩/٨.
٣-سورة البقرة من الآية رقم(٢٥٦).
٤- سورة يونس من الآية رقم (٩٩).

لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية"[١]، كما أشار إلى المبادئ الأخرى في وضوح[٢]، وقد تناول فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة هذه المبادئ بالتفصيل في كتابه القيم« خاتم النبيين »[٣]

تلك نبذة عن مبادئ الإسلام وأسسه في إنشاء العلاقات وإقامتها بين المسلمين مع بعضهم البعض، ومع غيرهم، يتجلى من خلالها عظمة الإسلام وسمو مبادئه حتى لتجد أرقى ما وصلت إليه الإنسانية في العلاقات وحقوق الإنسان أقل مما دعا إليه الإسلام وأرسى مبادئه وطبقها بين الناس، وكيف يتساويان.. وهذا شرع الله الخالق... وذلك شرع الآدميين المخلوقين؟

« العلاقات الإسلامية اليهودية»

في ضوء ما سبق من تلك المبادئ الإسلامية العامة، وفي ظل هدى النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم يأتي الحديث عن العلاقات الإسلامية اليهودية في عهد رسول الله عليه وسلم.والذي يتتبع هذه العلاقات وأطوارها يستطيع تقسمها إلى قسمين:

١- في السلم **٢- في الحرب**

وسيرى القارئ أن كل قسم من هذين القسمين مر ببعض الوقائع التي كان لها خصائصها ومميزاتها، على نحو ما يلي:

أولا: في السلم:-

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه

١- شريعة الاسلام د/ يوسف القضاوي ص ٥٢. ٢- أنظر المرجع السابق ص ٦١/٥٤.

٣- انظر خاتم النبين ص ٦٥١-٦٧٢.

يوم القيامة صرفا ولا عدلا. وقال:" المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يقبل مؤمن بكافر ولا ذو عهد فى عهده، من أحدث حدثا فعلى نفسه، ومن أحدث حدثا أو آوى محدثا فعلية لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"

وثبت عنه أنه قال:" من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضى أمدة أو ينبذ إليهم على سواء "وقال :" من أمّن رجلا على نفسه فقتله فأنا برئ من القاتل" وفى لفظ "أعطى لواء غدر" قال:" لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته"يقال :هذه غدرة فلان بن فلان ، ويذكر أنه قال:"ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو"[١] من هنا وفى ضوء ما تقدم من المبادئ والأسس التى أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن الإسلام فى وضوح احترام المسلم لأهل الذمة وحمايته لهم وحفاظه عليهم وعلى أرواحهم ومعاهداتهم وأمره بالوفاء لهم بما عوهدوا عليه، وتحذيره من مغبة خيانتهم والغدر بهم، ووعيده الشديد لمن يقع فى شئ من الخيانة والغدر بما عاهدهم عليه، فى ضوء هذا كله نجد التطبيق العلمى من رسول الله عليه وسلم وأصحابه فى معاملة اليهود إبان الهجرة إلى المدينة. فقد صالحهم رسول الله عليه وسلم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم، كان ذلك فى السنه الأولى من الهجرة، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتابا بذلك عاهدهم فيه وأقرهم على دينهم وشرط لهم واشترط[٢] عليهم فكان ممن جاء فيه: وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين لا تتناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم

١- زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن هيشم جـ٢ ص ٧٠.

٢- مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عبد الوهاب ص ١٣٩.

بعضا... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما دامو محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين.. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبني ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل ماليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد. ولا ينحجز على ثأر جرح[٢] وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وإنه لا يحول هذا الكتاب دونه ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر واتقى»[٣]

هكذا كان عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة، هم على دينهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، مطمئنون لجيرانهم، متحدون معا على أعدائهم، ويد

١- يوتغ : يهلك.

٢- كذا فى ابن هشام، وفى النهاية لما تحجر جرحه للبرء انفجر.

٣- تهذيب سيرة ابن هشام ص١٣٧، والبداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٤٦.

واحدة على من أراد بالمدينة شرا، ثم يتعاون أهل كل فريق أوحى فى نفقاتهم وفى دياتهم، ومن أراد شرا فعلى نفسه وأهله، والله سبحانه مع المتقين من هؤلاء وأولئك، أما الظالمون من هؤلاء وأولئك فعليهم غضب الله ولعنته، والحكم والرد فى كل قضية إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وتدل هذه الوثيقة على مدى العدالة التى اتسمت بها معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لليهود، وعلى أن أساس الدولة قائم على العدالة الاجتماعية، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم هو السلم ما سالموا، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس. ودفع أذى الأشرار عن المجتمع هو أبرز الشعارات التى تنادى بها دولة الإسلام[١] ونورد هنا نظرة وتعليق على هذه الوثيقة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة نوجزه فيما يلى :-

يقول الشيخ: هذه وثيقة النبى صلى الله عليه وسلم التى نظم بها المجتمع الجديد لسكان المدينة، لا فرق بين مهاجرين وأنصار، ولا فرق بين مؤمنين ويهود، ويلاحظ فيها:

أ- أن النبى صلى الله عليه وسلم بحكم النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة صار هو الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة، ولذلك لم يبح لطائفة من اليهود أن تخرج فى حرب إلا بإذنه حتى لا تتورط فى أمر يضطرب به أمر هذا المجتمع..

ب- أنه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود والذين يقيمون بيثرب رعية واحدة فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم، تراعى فيه حرمة العقيدة وأن لا يكون لأحد سبيل عليهم فيها ....

١- السيرة النبوية د/ مصطفى السباعى ص ٨٠.

جـ- إن العهد كان أساسه التعاون بين العشائر...

د- أنه مع التعاون بين العشيرة، هناك تعاون عام بحيث يتضافر المؤمنون جميعا.. وأن الحلف يوجب أن يكون عدو النبى صلى الله عليه وسلم عدوا لليهود فلا يجار قرشى ولا من يناصر قريشا، فعلى اليهود ألا يوالوا المشركين لأنهم أعداء الله تعالى وأعدائهم، وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة مسلمين ويهود أهل ولاء واحد، عدوهم واحد.. ومناصرتهم واحدة.. وذلك ليكون أمن الجميع واحدا..... ثم يقول:

فهل وفى به اليهود !!!

إن الأمور التى تجرى كفيلة بالجواب مع ملاحظة أن الأمر يوجب الوفاء من الجانبين، وإن أخل أحدهما ذهبت الحقوق التى تضمنتها الوثيقة له، وإذا كان الإخلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية وهى موالاة اليهود للمشركين على المؤمنين، فإنه فى هذه الحالة تزول صفة الجوار، ويكون من الواجب على من ينكث أن يترك الجوار ويتخلى عن الإقامة فى المدينة، وحل للطرف الآخر أن يخرجه طوعا أو كرها[١] وقد أدرك المسلمون فى ظل هذه المبادئ والأسس أن الإسلام بكتابه العظيم ورسوله الكريم يربيهم على التسامح وسعة المخالفين والإحسان إليهم والبر بهم، وينهاهم عن أن يحملوا لهم أى كراهية أو حقد أو أن ينالوهم بأى إساءة،كما أمرهم بالوفاء بالعهود والمواثيق، وحذرهم من نقض عهدهم بأى صورة من الصور[٢] قال تعالى:« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون»[٣]

وقد جعل القرآن الكريم الخروج عن فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الإنسانية

١-أنظر: خاتم النبيين ص ٦٧٤-٦٧٦.

٢- لمحات فى الثقافة الإسلامية/ عمر عودة الخطيب ص ٢٧٩.

٣-سورة النحل الآية(٩١).

كلها حيث قال جل شأنه «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون... الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون... فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون.. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »[١]

* وكان المسلمون أول من وضع قاعدة الوفاء بالعهود والمواثيق ثقة منهم بأن الوفاء بالعهد فى ذاته قوة فوق أنه عدالة وفضيلة، وهو دعامة أساسية من دعائم السلام، إن العهد فى ذاته قوة والتزامه قوة لأنه يؤمن فيه جانب الأعداء والأعتداء، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام، والسلام تطمئن فيه الشعوب وتستقر[٢].

هذا ما كان من الإسلام فى أول عهده نحو اليهود وغيرهم فى المدينة..

فماذا كان من اليهود نحو الإسلام ورسوله؟

أولا : التبشير .. جاء فى التوراة وغيرها من كتب اليهود مايبشر بمجئ النبى صلى الله عليه وسلم ويعرف به وبصفاته من مثل ماروى عن زيد بن أسلم قال : بلغنا أن عبد الله بن سلام يقول : "أن صفة رسول الله فى التوراة، ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولاصخب بالأسواق، ولايجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المتعوجة بأن يقولوا لاإله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذانا صما وقلوب غلفا، فبلغ ذلك كعب الأخبار فقال : صدق عبد الله بن سلام [٣].

من أجل ذلك راح اليهود يعلنون بين حين وآخر عن قرب ظهور النبى الأخير

١- سورة الأنفال الآيات من (٥٥-٥٨).

٢- لمحات فى الثقافة الأسلامية مرجع سابق ص ٢٨٤.

٣- الطبقات الكبرى لابن سعد جـ١ ص ٨٧.

ويتباهون بذلك ويهددون بالانتماء إليه، وكانوا يطلبون من الله عز وجل النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة.

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما من الدلائل عن طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري قال : حدثني أشياخ منا قالوا لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا لأن معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن، وكانوا إذا بلغهم منا مايكرهون قالوا إن نبيا ليبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقاتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعناه وكفروا به ففينا والله وفيهم أنزل الله : "وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به .." [1].

كان اليهود يبغون من وراء ذلك التبشير بالرسول الجديد والتهديد به مزيدا من السيطرة على العرب، واحتكار المقدرات المالية والمعنوية، وكانوا يظنون أنه سيكون منهم ومن سلالتهم، ولم يكن الكثير من أحبار اليهود يتوقعون أن النبي الجديد سيجئ هذه المرة من سلالة أخرى غير السلالة اليهودية، وأنه بانتمائه العربي سيشكل خطرا على وجودهم المستقل، وبدعوته العالمية المقترحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة، وعبادته العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم وأسرارهم التي يرتزقون منها ويضمنون بقاءهم في المراكز العليا لبني قومهم.

ثانيا : الكيد - وما أن جاء الموعد .. وحل الأجل المضروب في التوراة والإنجيل، ولم يظهر في اليهود النبي الذي ظنوه منهم، وولد محمد صلى الله عليه وسلم يحمل علامات النبوة المادية والمعنوية حتى بدأ اليهود يتخوفون من أن تخطئ ظنونهم، وألا تكون النبوة فيهم فيصابون بخسارتين، وأصبح الطفل الذي سيبعث إلى

١- فتح القدير/ الشوكاني جـ١ ص١١٢/١١٣ تفسير الآية ٨٩ من سورة البقرة، وانظر خاتم النبيين ص ٣٤٧.

العالم فى خطر دائم من مكر اليهود وعرقيتهم التى تتيح لهم اتخاذ أى أسلوب مهما كان دنيئا لوقف كل مايهدد مصالحهم ووجودهم حتى لوكان هذا الأسلوب القتل والغيلة، وهذا يفسر لنا تحذير بحيرا الراهب [١] لأبى طالب :

"إرجع بابن أخيك إلى بلدك واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم" [٢].

ويرجع بعض الدارسين أن اليهود بعد أن تيقنوا من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أخذوا يكيدون له عن طريق الوفود السرية التى كانت بينهم وبين قريش والتى ظهرت أثارها عند كعب بن الأشرف فيما بعد.

فمن ذلك مثلا : أن قريشا أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد وخبره باعتبارهم أهل كتاب يعلمون مالاتعلم قريش، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم، وكانت الأسئلة الثلاثة :

١ - عن أهل الكهف.

٢ - عن ذى القرنين.

٣ - عن الروح [٣].

١-مسيحى من أصل الشام كان قسا عالما فلكيا واسمه فى السريانية يعنى التبحر فى العلم، وكان على مذهب أريوس ونسطور الذى ينكر ألوهية المسيح وأمه، وكانت له صومعة فى «بصرى» بالشام على الطريق بين مكة والشام وكان يدعو إلى التوحيد، وقد مرت به قافلة قريش وفيها محمد قبل البعثة فعرف من علاماته أنه النبى المنتظر.

٢-أنظر خاتم النبيين ص ٤٦٦ مرجع سابق.

٣- دراسة فى السيرة د/عماد الدين خليل ص ٣٢٤.

ثالثا : الترقب والمعاهدة : إلا أن محاولات الوثنية واليهود قد أخفقت ونجح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة إلى المدينة، وإقامة دولة الإسلام بها، وظل اليهود يراقبون الصراع بين الوثنية والإسلام ليخططوا على ضوء نتائجه مايضر بالإسلام ويسدد الضربات إلى ثغراته ومواطن ضعفه، ولذلك وافقوا على كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ومعاهدته ليتيحوا لأنفسهم فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم إزاء السرعة التى كانت تتحرك بها الأحداث الإسلامية [١].

رابعا : الجدل والعناد : ظل اليهود بعد المعاهدة هادئين يؤملون فى أثناء ذلك أن يقر الرسول صلى الله عليه وسلم بأرجحية العقيدة التى يدينون بها، ويظنون أنهم يتمكنون يوما من استمالته إلى دينهم وإدخاله هو وأصحابه فيه، غير أن ظنهم قد خاب عندما أدركوا أن محمدا ليس مجرد زعيم يحترف السياسة، وإنما هو نبى صاحب رسالة عظمى يحملها للعالمين، ولذلك فهو الذى يدعوهم للدخول فى دينه لاهم، فلما كفروا به بدأ القرآن الكريم يفضح ماضيهم وحاضرهم ويكشف سوءاتهم، وكان الإسلام يتزايد انتشارا وأتباعا، ويتزايد أتباعه وحدة وتماسكا، لذلك أدرك اليهود أن الإسلام هو الخطر الذى يهددهم فقامت بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم محاجات ومجادلات مالبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدى - والتعنت .. والعناد .. وإن كانت قد أدت بالمعتدلين منهم إلى الإسلام، فقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه بلغه مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه يسأله عن أشياء، فلما أجابه النبى صلى الله عليه وسلم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال : يارسول الله : إن اليهود قوم بهت [٣] فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى .. فجاءت اليهود فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أى رجل عبد الله

١- تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦. ٢- دراسة فى السيرة د/ عماد الدين خليل ص ٣٢٤.

٣- بهت / جمع بهوت: وهو الذى يقذف بالباطل.

ابن سلام (١) فيكم ؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك .. فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فقالوا : شرنا وابن شرنا، وانتقصوه ، قال : هذا كنت أخاف يارسول الله (٢).

وفى هذا قال الله عز وجل : "قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين" (٣).

ومن هنا نعلم أن اليهود كانوا يبيتون النية للانقضاض على الإسلام وأهله بعد أن اتضح لهم أن طبيعة الدعوة الإسلامية عالمية وأن نبيها صلى الله عليه وسلم ليس منهم ولكنه من العرب، وأن قيام دولتهم فى المنطقة التى سيطر عليها اليهود ماديا وعلميا يهدد مصالحهم ونشاطاتهم المختلفة.

خامسا : الفتنة والوقيعة : لذلك بدأ اليهود يتعنتون فى مواجهة النبى صلى الله عليه وسلم ويرمون الأنصار بقوارض الكلم ويشجعون فئة من الناس على الخداع والنفاق وبدأوا يوقعون بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج وقاموا بفتنة الناس عن دينهم وصد مَنْ يريد الإسلام عنه فمن ذلك :

١-عبد الله بن سلام: أحد أحبار اليهود وعلمائهم الصالحين،وكان اسمه الحصين فلما أسلم سماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله وكنيته أبو يوسف، وكان حليفا لبنى الخزرج وهو من بنى قينقاع توفى سنه٤٣ هـ وقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء، قبل أن يعلن إسلامه، وهى : أشراط الساعة، وأول طعام أهل الجنة والوراثة وقد جاءت إجابة النبى صلى الله عليه وسلم مطابقة لما يعرفه عبد الله بن سلام من التوراه فعلم أنه رسول الله وقال: أشهد أنك رسول الله وأعلن إسلامه.

٢- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر جـ٨ ص ١٦٥.

٣- سورة الأحقاف الآية(١٠) وانظر فى تفسيرها فتح القدير جـ٥ ص ١٦، ١٧.

أنه لما أوحى الله عز وجل إلى نبيه بتحويل القبلة إلى الكعبة من بيت المقدس أنكروا ذلك وحاولوا فتنة النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه بقولهم أنهم سيتبعونه إن رجع إلى قبلته الأولى.

ويوما بعد يوم اشتد النفور بين الطرفين وكثرت الخصومات بينهم وبدأت الكراهية والبغضاء تأخذ شكلا فنزل القرآن الكريم ينهى عن الاختلاط بهم واتخاذ بطانة منهم "ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايأتونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون .. ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .. قل موتوا بغيظكم .. " (١).

من هذا العرض يتضح لنا أن العلاقات فى هذه المرحلة السلمية كانت تعتمد على ماأرساه الإسلام من مبادئ الأخوة والوفاء والعفو والتسامح وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قد سعوا إلى تطبيق تلك المبادئ فى معاملتهم مع اليهود. أما اليهود فقد قابلوا ذلك بالحقد والعداوة وعبروا عن ذلك بسلوكيات عديدة : فهم مرة يحاولون الاعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم (٢)، ومرة يجادلونه ويحاجونه(٣)، ومرة يعاهدونه ويضمرون له ولأهله الشر والكراهية (٤)، ومرة يعلنون عن ذلك ويوقعون بين المسلمين ويثيرون الفتن بينهم (٥) رغبة فى إضعافهم وتقليم شوكتهم حتى تبقى السيادة لليهود، ولكن القرآن الكريم تصدى لهم وفضح أمورهم وحذر المسلمين من ولايتهم واتخاذ بطانة منهم ونورد فى ذلك ماقاله الشيخ محمد أبو زهرة : "عقد النبى صلى الله عليه وسلم حلفا مع اليهود جعل فيه : له مالهم وعليه ماعليهم، وتعاهد معهم على البر والتقوى لاعلى التعاون على الإثم، وأنهم فى أحيائهم

١- سورة آل عمران الآيات ١١٨/١١٩.
٢- كما حدث من بنى النضير وفى فتح خيبر.
٣- كما حدث فى موضوع تحويل القبلة.
٤- كما حدث مع بنى قريظة.
٥- خاتم النبيين ص ٧٨٢ مرجع سابق.

متعاونون على دفع الإثم وعقل الجانى الذى تجب عليه الدية، وفى الجملة أعطاهم الحرية والحماية وعقد معهم جماعة وأحياء متفرقة عقدا ملزما، ولكن الحسد كان يسكن قلوبهم من أن الرسول الذى بعث كانوا يتمنون أن يكون من ولد إسحاق لامن ولد اسماعيل، وقد كانوا يعرفون أن نبيا سيبعث، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به حسدا من عند أنفسهم، وكلما استيقنوا أنه النبى المبشر به فى التوراة ازدادوا ضيقا وغضبا وكفرا، وكلما وجدوا آيات النبوة زادتهم طغيانا وضلالا وعتوا وفسادا فى الأرض، وكأنهم وحدهم سلالة قابيل الذى قتل أخاه .... وقد ثبت أكثر اليهود على اعتقادهم وجاهدوا بالبقاء عليه والاعتراض الدينى على النبى صلى الله عليه وسلم ولكنهم نافقوا فى أنهم لم يخلصوا فى العهد الذى عاهدهم عليه النبى صلى الله عليه وسلم بل كانوا يخفون الخيانة بالمسلمين الدوائر ويكاتبون أعداء النبى صلى الله عليه وسلم ويحرضونهم عليه. ويسرفون على أنفسهم فينافقون المشركين، ويقولون إن ماهم عليه من شرك خير مما يدعو إليه النبى صلى الله عليه وسلم من التوحيد [١] ...

وقال فى موضع آخر عن المنافقين واليهود : "وكانوا هم والذين بقوا على يهوديتهم من يهود أشد الناس أذى للنبى وأصحابه، فالمنافقون كانوا يبثون فى المسلمين روح التردد والهزيمة وفى المسلمين سماعون لهم كما قال الله تعالى : "ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.. لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين" لقد ابتغوا الفتنة وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون" [٢].

١- خاتم النبيين ص ٧٨٢ مرجع سابق.
٢- سورة التوبة الآيات (٤٦، ٤٧، ٤٨).

واليهود من وراء المنافقين يتعاونون معهم، ويكيدون معهم، ويمكرون ويمكر الله تعالى بإفساد تدبيرهم، وكاد اليهود ليلقوا الشك فى قلوب المؤمنين، يظهرون الإيمان ثم يعلنون الردة ليشجعوا المسلمين على الردة وليكونوا لهم مثلا لمن يخرج من الإسلام بعد الدخول فيه كما قال الله تعالى : "وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون" [١].

وهكذا كان الافساد واليهود .. ينافقون .. ويدعون الوثنيين إلى النفاق، ويبثون بنفاقهم روح الفرقة بين المسلمين ويستهزئون ويسخرون من أهل الإيمان، ويجعلون من أنفسهم مثلا لمن يخرج عن الإسلام فيظهرون الإسلام ثم يخرجون ليكونوا مثلا سيئا للمسلمين لعلهم يرجعون [٢]، وهكذا نرى أن العلاقات ليست متوازنة مما جعل الأمور تتطور كما سنرى بعد فى انتقال العلاقات من السلم إلى الحرب.

ثانيا : فى الحرب : الأسباب .. والنتائج :

لقد أرسى الإسلام مبادئ العلاقات وترجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إعلانها فى شكل بنود معاهدة لليهود .. والتزم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون بتطبيقها دون الإخلال بشئ منها .. ولكن اليهود كانوا على نقيضها بسبب الحقد الذى دفعهم لإثارة الفتن والقلاقل .. وحيك المؤامرات ضد الاسلام وأهله بل وصل بهم الأمر من الجرأة وإعلان التعاون مع أعداء المدينة وأهلها..

فكان لابد من وقفة فى التعامل بالمثل لمنع الضرر ودرء الخطر .. فاضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حرب أى فئة منهم تبدأ بالعدوان .. وتنقض العهد .. وتعلن العداء، وهو كما نرى بعد :

١- سورة آل عمران الآية رقم(٧٢).

٢- خاتم النبيين ص ٧٨٦ مرجع سابق.

أولا : مع بني قينقاع :

وهي إحدى قبائل اليهود الكبرى بالمدينة .. وكما أسلفنا كانوا يقيمون وسط المدينة .. ويشتغل معظمهم بالتجارة فى الذهب وصياغته ولهم سوق سمي باسمهم .. وقد دخلوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وكان المفروض أن يقف هؤلاء اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حربة ضد الكفار فى غزوة بدر ولكنهم على العكس من ذلك .. أخذوا يروجون الشائعات ضد المسلمين، ويشنون حربا نفسية ضد الرسول صلى الله عليه وسلم .. ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين، حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم إلى قريش، كما أنهم على اتصال بهم وتلقوا رسالة من قريش تحرضهم فيها على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأظهروا للرسول صلى الله عليه وسلم الحسد والبغض بعد انتصاره على المشركين فى بدر .. وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لايشبه قتال أحد، بذلك أظهروا نقض العهد .. فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق بنى قينقاع وقال لهم : يامعشر اليهود : احذروا من الله عز وجل مثل مانزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم، قالوا : "يامحمد إنك ترى إنا مثل قومك، لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس" (١).

وقال ابن اسحاق : حدثني مولى ليزيد بن ثابت عن سعيد بن جبير وعن عكرمة عن ابن عباس قال : مانزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم "قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد .. قد كان لكم آية فى فئتين التقتا .. فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين .. والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى

١- البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ٤ ، انظر فتح القدير جـ١ ص ٣٢٦.

ذلك لعبرة لأولى الأبصار" (١) فالذين كفروا هم اليهود .. والفئة التى تقاتل فى سبيل الله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .. والفئة الكافرة المشركون.

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد (٢).

وقال ابن هشام : كان أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب (٣) لها فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا وشددت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع (٤).

أسباب المواجهة والغزو :

مما سبق عرضه يتضح أن الأسباب التى دعت إلى مواجهة اليهود وغزوهم :

أن اليهود كانوا مشعلى الفتنة ومؤججى نارها .. فلم يقاتلوا المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولم يهنئوهم بالنصر .. ولم يقفوا محايدين، بل قاموا يبكون الكفار .. ويهجون المسلمين ويشنون الحرب النفسية عليهم .. ولم يعتبروا بما حدث للمشركين .. ولم يحافظوا على عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وانتهكوا حرمة سيدة من سيدات العرب من الأنصار .. وقتلوا المسلم الذى دافع عنها.

١- سورة آل عمران الآيتان ١٢، ١٣ وانظر عون البارى جـ٦ ص ٢٣٤.

٢- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٤.

٣- جلب : مايباع. ٤- تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٧١.

سقطت الأقنعة الزائفة وأصبح العداء سافرا .. وتحصن يهود بنى قينقاع بحصونهم سار إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى منتصف شوال من السنة الثانية من الهجرة يحمل لواءه عمه حمزه بن عبد المطلب وخلف على المدينة أبا بشير بن المنذر.

المواجهة (الغزوة) :

حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قينقاع فى حصونهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمة صلى الله عليه وسلم الذى قضى بإجلائهم دون أن ينزل بهم أى عقوبة فخرجوا إلى أذرعات [١] وأشرف على إجلائهم عبادة بن الصامت، ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا [٢].

ويروى ابن كثير أن عبد الله بن أبى بن سلول قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمكنه الله عز وجل من بنى قينقاع فقال : يامحمد أحسن فى موالىّ وكانوا حلفاء الخزرج، قال فأبطأ عليه فأدخل يده فى جيب درع النبى صلى الله عليه وسلم، قال ابن هشام وكان يقال لها ذات الفضول، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلنى، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللا [٣]، ثم قال ويحك أرسلنى. قال : لا والله لاأرسلك حتى تحسن فى موالىّ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك [٤].

هكذا تتكشف سوء نوايا اليهود من بنى قينقاع وعداوتهم للإسلام والمسلمين مع تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ثم عفوه بعد أن أمكنه الله عز وجل منهم .

١- أذرعات : بلدة بالشام.

٢- خاتم النبيين ص ٨١٤ مرجع سابق، نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين/ محمد الخضرى ص ١٢٨.

٣- ظللا : أى ندى.

٤- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص٥، والحاسر الذى لادرع له، ،الدارع الذى يلبس الدرع.

وتبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج .. وتشبث بالحلف عبد الله بن أبي وقد قال ابن اسحاق في هذا : حدثني أبي عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من بني عوف له حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، قال: وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات:« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء....بعضهم أولياء بعض..ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين.. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة.. فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين»[١].

ويقول الشيخ أبو زهرة:« أخذ بنو قينقاع من قبل ما حدث مع المرأة..وما كان من تهديد..يتطاولون على المسلمين بالسب والأذى والتحامل وعدم صدق لسانهم عن المسلمين والإسلام..والنبي صلى الله عليه وسلم يصابرهم ويوفي بعهدهم حتى كان منهم القتل.. وإن أمر بني قينقاع قد انتهى بإجلائهم وطهرت المدينة من أرجاسهم..وما كان ذلك اعتداء من النبي صلى الله عليه وسلم بل لرد اعتدائهم ولنقضهم للعهد..ولأنهم صاروا جيران سوء يحق إجلاؤهم ليسلم الناس من فسادهم»[٢].

النتائج والثمار :

بهذه الغزوه

١- استراح الإسلام والمسلمون والمدينة من واحدة من قبائل اليهود الثلاث.

٢- ازدات وحدة المدينة تماسكا وازداد اليهود ضعفا.

١-سورة المائدة الأيتان ٥١-٥٢. وانظر بيان سبب النزول فتح القدير جـ٢ ص ٥٢.

٢- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٨١٤-٨١٦.

٣- امتنع اليهود عن الجدل الدينى لما وقع فى نفسهم من الوهن والرعب لإجلاء يهود بنى قينقاع.

٤- كفوا عن رمى المسلمين بقوارض الكلم كما كان يتبع قبل ذلك.

٥- أصبح للمسلمين هيبة فى قلوب البطون العربية التى لم تكن قد دخلت فى الإسلام.

٦- انفسح المجال أمام النبى صلى الله عليه وسلم لنشر دعوته (١).

ثانيا: مقتل كعب بن الأشرف :-

بعد الموقف من يهود بنى قينقاع، كان ولابد من وقفه أخرى مع زعيم من زعماء اليهود عامة ويهود بنى النضير خاصة، وقد كان يحمل من الحقد والعداوة والبغضاء لرسول الله عليه وسلم والمسلمين مثل ما حملت قبيلة بأسرها، وأعلن عن ذلك وأكده بممارسات فعلية ومواقف علنية، فدارت عليه الدوائر...وجنى ثمار حقده...وأراق رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه، وعلى الباغى تدور الدوائر... وقد رويت فى قتله عدة روايات منها هذه الرواية التى تبين لنا أسباب قتله: قال محمد بن اسحاق: كان من حديث كعب بن الأشرف-وكان رجلا من طئ وأحد بنى نبهان وأمه من بنى النضير-أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثه وعبد الله بن رواحه قال:« والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » فلما تيقن عدو الله الخبر خرج إلى مكة، فنزل على المطلب بن وداعه بن ضبيرة السهمى

وعنده عاتكه بنت أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف... فأنزلته وأكرمته وجعل يحرض على قتال رسول الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويندب من قتل من المشركين يوم بدر فذكر ابن أسحاق قصيدته التى أولها :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله...... ولمثل بدر تستهل وتدمع

١- دراسة فى السيرة د/ عماد الدين خليل ص ٣٣٦ نقلا عن تاريخ اليهود د. ولفنسون ص ١٣١ .وانظر تاريخ الطبري٢ ص٤٧٩-٤٨١، السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ص٤٧-٤٩.

وذكر جوابها من حسان بن ثابت رضى الله عنه،ثم عاد إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين ويهجوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال فى أم الفضيل بنت الحارث

إحدى بنى عامر جن الفؤاد بها... ولو تشاء شفت كعبا من السقم

لم أرشمسا بليل قبلها طلعت.... حتى تجلت لنا فى ليلة الظلم

« وتحول من أم الفضل إلى نساء مسلمات أخريات... مع هجائه للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف أحد بنى النضير أو منهم قد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء وركب إلى قريش فاستغواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أنا شدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق؟: إنا نطعم الجزور الكوما «[1]... ونسقى اللبن على الماء....ونطعم ما هبت الشمال، فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى سبيلا. قال فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم:« ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا... أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »[2]. قال موسى ومحمد بن إسحاق: وقدم كعب للمدينة يعلن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى جمع أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يشبب بنساء المسلمين.. قال ابن إسحاق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لى بابن الأشراف؟ فقال له محمد ابن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك، قال فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له:

١- الكوماء : عظيمة السنام.

٢- سورة النساء الأيتان ٥١-٥٢.

لم تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول الله قلت لك قولا لا أدرى هل أفى لك به أم لا ؟ قال: إنما عليك الجهد، قال: يا رسول الله: إنه لابد لنا أن نقول[1]، قال: فقولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك قال: فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمه وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بنى عبد الأشل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشربن وقش أحد بنى عبد الأشهل والحارث ابن أوس بن معاذ أحد بنى عبد الأشهل وأبو عيسى بن جبير أحد بنى حارثة قال: فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله.. كعب سلكان بن سلامة أبا نائلة فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرا- وكان أبو نائلة يقول الشعر- ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عنى، قال: كان قدوم هذا الرجل- يقصد محمداً- علينا بلاء.... عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا حتى ضاع العيال... وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، فقال كعب بن الأشرف: أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول؛ فقال له سلكان: إنى قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك، قال: ترهنونى أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معى أصحاب على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة[2] ما فيه وفاء، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها. فقال: إن فى الحلقة لوفاء، قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن اسحاق: فحدثنى ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: مشى معهم رسول الله صلى الله عيله وسلم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال:« انطلقوا على

١- يريد أنه لتحقيق هذا الغرض لابد أن نكذب، وقد بوب البخارى عليه« الكذب فى الحرب».

٢-الحلقة: السلاح.

اسم الله، اللهم أعنهم» ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته وهو فى ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب.. وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة لو وجدنى نائما ماأيقظنى، فقالت: والله إنى لأعرف فى صوته الشر، قال: يقول لها كعب لو دعى الفتى لطعنة أجاب، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم، فخرجوا فمشوا ساعة ثم إن أبا نائلة شام يده فى فود[1] رأسه ثم شديدة فقال: ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن... ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بقوى رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله؟ فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا، قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولا[2] فى سيفى فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار قال: فوضعته فى ثنته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله..وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح فى رجله أو فى رأسه أصابه بعض سيوفنا، قال: فخرجنا حتى سلكنا على بنى أمية بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعاث حتى أسندنا فى حرة العريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله.... وتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودى إلا وهو خائف على نفسه[3] وعن كعب

١- فود رأسه : جانبه من جهة الأذن.

٢- المغول: نصل طويل (سكينا).

٣- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٩، عون البارى بشرح صحيح البخارى جـ٦ ص ٢٣٧-٢٤٠.

بن الأشرف وجزائه يقول الشيخ محمد أبو زهرة:« هذه حال فردية ولكنها ذات صلة بسير الحروب بين أهل مكة المشركين والنبى صلى الله عليه وسلم وما كان يقوم به اليهود فى هذه المعارك آحادا وجماعات من تحريض للمشركين.. وتخذيل للمؤمنين وبث روح التردد والهزيمة فى أهل المدينة وإثارة الحروب فى مكة..»وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله تعالى، وكان كعب بن الأشرف يقوم في ذلك بأعمال خطيرة تؤجج النيران ضد المؤمنين، ولم يدخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عهد... ولم يقف منه ولا من المؤمنين موقف المسالمة أو يعتزل... بل أظهر العداوة وعمل تحت سلطانها [١]، ثم أخذ يعدد المواقف التي سبقت الإشارة إليها. ثم قال: هذا ما يفعله الرجل اليهودى المتطلق من كل العهود والمواثيق.. أيسكت النبى صلى الله عليه وسلم وهو المحارب الحذر الذى يهجم على مداخل الأذى قبل أن يلج منه العدو؟ أم يعلنها على قومه أو من ينتمى إليهم من بنى النضير؟ وأكثرهم لم ينالوا بمثل ما نال، ولا تزر وازرة وزر أخرى؟ والنبى صلى الله عليه وسلم لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها ولما يعلنوها. أم يسكت ويترك الشر يستشرى ويحاكيه فى أفعاله بقية يهود؟ لا شك أن آخر الدواء الكى، إنه لا بد أن يجتث الداء من موضعه ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله، ولا منجاة حينئذ، لم يبق إلا أن يقتل كعبا حسما لمادة الفساد [٢].

ماذا ترتب على قتل كعب بن الأشرف؟:

١- وكان في مقتل كعب بن الأشرف تأديب لليهود وتخويف لهم.... فدب الرعب فى قلوبهم العنيدة.. وأسرعت الأفاعى إلى جحورها تختبئ فيها وأجدت العصا حين أعيت النصيحة... وبطل المقال.

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٨١٨.

٢- المرجع السابق ص ٨٢٠.

٢- لزم اليهود حدودهم فلم يتجرأوا على المسلمين بأى سبب وظهر كأنهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركا بعد اليوم .

٣- دفعهم الفزع إلى مقابلة النبى صلى الله عليه وسلم حيث قالوا له: قد طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا ، وقتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأية مااغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر...ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف.

٤- عرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا القول أن يكتب بينهم كتابا ينتهون إلى مافيه...فأجابوه إلى ذلك حيث أصابهم الخوف والذل[١].

وبعد ذلك تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم- إلى حين- لمواجهة الأعراب المشركين[٢]

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاسيا ولايظن به ذلك وهو الرءوف الرحيم... بل كان عادلا فى مجازاة كعب على إيذائه للنبى صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا ويؤكد ذلك إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم« إنه لو قر مثل ما قر غيره ممن هو على رأيه ما اغتيل..

وفى هذا المعنى يقول الشيخ محمد أبو زهرة " ردا عليها" ولقد وجدنا من الغربيين من أثار زوبعة حول النبى صلى الله عليه وسلم وكيف يأمر بالقتل غيلة... وهذا يتنافى مع الرسالة الألهية كما يتنافى مع أصل القتل كما كان من عيسى عليه السلام الذى يروون عنه أنه قال :« من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر»

١- دراسة فى السيرة مرجعي سابق ص ٣٣٨.

٢- فقه السيرة الغزالى ص ٢٦٤.

ونقول فى الجواب عن ذلك: إن قمع أعداء الدعوة الدينية لايتنافى مع الرسالة ... فموسى عليه السلام وهو من أولى العزم من الرسل قد قتل بيده وقاتل ودعا بنى اسرائيل إلى القتال وما تنافى ذلك مع رسالته الإلهية التى نزلت بها التوراة وهى كتب العهد القديم المقدسة عند اليهود والنصارى معا، ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال ونقول فى ذلك أن القتل المشروع يكون بباعث من الرحمة، فليست رحمة النبوة انفعالة رعناء تكون على موضع البرء والسقم، إنما رحمة النبوة تكون بالكافة، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه ومنع الفساد فى الأرض [١].

"كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف موقفا آخر مع "مخيريق" وهو يهودى أحد بنى ثعلبة بن الفيطون قال ابن إسحاق:" .... لما كان يوم أحد قال : يامعشر يهود : والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا : إن اليوم يوم السبت. قال : لاسبت لكم. فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قتل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا : "مخيريق خير يهود" قال السهيلى : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال مخيريق - وكانت سبع حوائط - أوقافا بالمدينة لله. قال محمد بن كعب القرظى : "وكانت أول وقف بالمدينة" [٢].

فهذه شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمخيريق .. لأنه نطق بالحق .. وجاهد مع الحق .. ووقف أمواله فى سبيل الحق .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم مع الحق حيثما كان.

ثالثا : يهود بنى النضير :

من قبائل اليهود الكبرى فى المدينة "بنو النضير" وقد كانوا فى أمان بمعاهدتهم

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٨٢٢.

٢- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٣٨.

مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكان في وسعهم أن يبقوا كذلك، ولكنهم لم يحافظوا على العهد مع رسول الله صلى الله علية وسلم ولم يعتبروا مما حدث لإخوانهم بني قينقاع من جزاء نقض العهد بل استجابوا لنداء الحقد في قلوبهم والخيانة تجري في عروقهم وقاموا بمؤامرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك بيانها :

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمر بن أمية [١] للعهد الذي كان صلى الله عليه وسلم أعطاهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف فلما أتاهم صلى الله عليه وسلم قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت .. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله [٢] - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه.

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال : أنا لذلك، فصعد ليلقي على النبي صلى الله عليه وسلم صخرة . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم .. فقام وخرج راجعا إلى المدينة فلما استلبث [٣] النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به.

قال الواقدي : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة يأمرهم

١- وقد قتلها يريد أن يصيب بذلك ثأرا من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم بئر معونة.

٢- أي لن تجدوا فرصة خيرا من هذه للنيل منه.

٣- أي وجدوا أنه طال اللبث: تأخر وكان معه أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي.

بالخروج من جواره وبلده فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر، فقويت عند نفوسهم .. وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لايخرجون ونابذوه بنقض العهود. فعند ذلك .. قال ابن اسحاق : وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتهئ لحربهم والمسير إليهم .. قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وذلك فى شهر ربيع الأول .. قال ابن إسحاق : فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال، ونزل تحريم الخمر حينئذ، وتحصنوا فى الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها [١]، فنادوه يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ قال : وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبى ودبعة ومالك وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم .. إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة [٢].

وقال العوفى عن ابن عباس : أعطى كل ثلاثة بعيرا يتعقبونه (يتبادلون الركوب عليه واحدا عقب الآخر) وسقا . قال ابن اسحاق : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان وهما يامين بن عمير بن كعب بن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب فأحرزوا أموالهما. قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض آل يامين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك وماهم به من شأنى ؟ .. فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله لعنه الله.

١- سنن ابن ماجة باب التحريق بأرض العدو حديث رقم ٢٨٤٤.

٢- الحلقة : السلاح.

قال ابن اسحاق : فأنزل الله فيهم سورة الحشر بكمالها يذكر فيها ما أصابهم به من نقمته وما سلط عليهم به رسوله، وما عمل به فيهم [١]. فمن ذلك قوله سبحانه : "هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار... ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب.... ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين»[٢].

وقوله عز وجل فى شأن المنافقين:«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون... لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم... ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون»[٣].

الخلاصة ، أو النتائج:

من هذا العرض يتضح أن يهود بنى النضير هم الذين بدأ وانقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك تآمروا على قتله وهو فى ضيافتهم يريد الأستعانة بهم،... ولقد كان ذلك الجرم كفيلا بحربهم والقضاء عليهم... ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرءوف الرحيم يبعث إليهم ينذرهم بالجلاء، فلما لم يفعلوا وتحصنوا بحصونهم واعتمدوا على معونة المنافقين ووعودهم.. حاصرهم رسول الله صلى

١- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ٧٦-٧٨، وانظر بن هشام جـ٣ ٢٠٢-٢٠٦ والسيرة النبوية للندوى ص ١٩٥ ، وخاتم النبيين ص ٨٩٠-٨٩٢، طبقات ابن سعد جـ٢ ص ٤٠١-٤٠٢.

٢-سورة الحشر الآيات (٢-٥).

٣- سوة الحشر الآيات (١١-١٢).

الله عليه وسلم وكان قادرا على إبادتهم ولكنه مع هذا كان رحيما بهم فاستجاب لطلبهم فى الجلاء، وما تحمله إبلهم من الأموال إلا السلاح فأذن لهم بذلك.. فمنهم من ذهب إلى الشام، ومنهم من ذهب إلى خيبر... كما لقى عمرو بن جحاش بطل المؤامرة جزاءه العادل فقتل، وكان ذلك على يد ابن عمه يا مين.

١- استراح الإسلام والمسلمون- إلى حين- من شر هذه الفئة التى دارت عليها دوائر بغيها وظلمها

٢- توحد سلطان المسلمين فى المدينة.

٣- تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأديب غيرهم من المشركين والأعراب الذين نالوا من أصحابه صلى الله عليه وسلم يوم الرجيع وبئر معونة[1] وغيرهما.

٤- كان فى الأموال التى تركوها عون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من فقراء المهاجرين حتى يتحقق لهم التوازن الاقتصادى والعيش مع إخوانهم الأنصار.

رابعا: معاملة بنى قريظة:-

القبيلة الثالثة الكبرى من قبائل اليهود، وقد كانوا على عهد وأمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ هجرته إلى المدينة كغيرهم... ولكنهم لا يستطيعون التخلص مما طبع عليه اليهود من غدر وخيانة ونفاق وتآمر وفي كل مرة يظهر الله عز وجل مكرهم وخياناتهم وينتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ويعز الإسلام وأهله دونهم.

ومع أن بنى قريظة ممثلين فى أحد زعمائهم كانوا راغبين فى الوفاء بالعهد أو

١- هما يومان قتل فيهما عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غدرا ففى يوم الرجيع قتل ستة من الصحابة كانوا قد ذهبوا مع القوم لتفقيههم ودعوتهم للإسلام، وفى يوم بئر معونة قتل سبعون كانوا قد ذهبوا لنفس الغرض فغدر من تظاهروا بالإسلام وقتلوهم، وكان كلا اليومين فى صفر من السنة الرابعة من الهجرة ٦٢٥م. انظر الاصطفا جـ٢ ص ١٩٦- ٢٠٠.

خافوا من عواقب النقض أن يحل بهم مثل الذى حل بإخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير.. حتى أن منهم من أسلم ودعاهم إلى الإسلام. وهو عمر بن سعد القرظى الذى قال لقومه بنى قريظة: رأيت اليوم عبرا وقد عبرنا بها، رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والمجد والشرف الفاضل، والعقل البارع، وقد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروجا ذليلا، وأوقع بنى قينقاع فأجلاهم وهم أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم فلم يخرج إنسان منهم وأسر باقوهم حتى سباهم وكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب، يا قوم قد رأيتم مارأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدا، والله إنكم لتعلمون أنه نبى قد بشرنا به.....فأسكته القوم ولم يتكلم أحد إلا كعب بن أسد، قال له: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت يا كعب، قال: فلم وما حلت بينك وبينه قط، وقال بعض اليهود الحاضرون: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبينا[1].

إلا أن أصلهم وطبيعتهم تغلبت عليهم، وما هى إلا مداولات بسيطة بينهم وبين إخوانهم اليهود والمشركين حتى نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدارت عليهم الدوائر وحل بهم وبال أمرهم، وكان عاقبة أمرهم خسرا.... وإليك البيان:

قال ابن إسحاق: كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى وحيى بن أخطب النضرى وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت قريش لهم: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٩٠٤.

وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله فيهم «ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا[١]» فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك واتحدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه[٢].

فاليهود كما ترى من هذا السياق هم الذين سعوا إلى حرب رسول اله صلى الله عليه وسلم وتأليب الأحزاب عليه وعلى أصحابه، وهم الذين تآمروا مع المشركين على استئصال الرسول ودعوته. وهم الذين شهدوا ظلما وعدوانا بأن الشرك والوثنية خير من التوحيد والإسلام، وأن المشركين خير وأهدى سبيلا من المؤمنين

قال موسى بن عقبة: ولما نزل الأحزاب حول المدينة، أغلق بنو قريظة حصنهم دونهم، قال ابن إسحاق: وخرج بن أخطب النضرى حتي أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقدهم وعهدهم، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه: ويحك يا كعب افتح لى، قال: ويحك ياحيى إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا[٣]، قال: ويحك افتح لى أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغلقت الحصن دونى إلا خوفا على جشيشتك[٤]. أن آكل معك منها فأحفظ الرجل[٥] ففتح له، وقال ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام[٦] قال: وما ذاك؟ قال: جئتك بقريش

١-سورة النساء الأية رقم (٥١).
٢- البداية والنهاية جـ٤ ص (٩٦).
٣- وهذه شهادة حق.
٤- طعام من البر المجروش، وهو اتهام بالبخل.
٥- أحفظه : أغضبه
٦- بحر طام : مرتفع كثير الماء المراد خير كثير أو جيش كبير يهلك من يقابله كالبحر يغرق من يعارض موجه.

على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال[1] من دومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقى[2] إلى جانب أحد وقد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال كعب: جئتنى والله بذل الدهر وبجهام[3] قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شئ، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا، وقد تكلم عمرو بن سعد القرظى فأحسن وذكرهم ميثاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره، وقال: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه[4].

قال ابن إسحاق: حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب[5] حتى سمع له- يعنى- فى نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى محاربته مع الأحزاب على أن أعطاه حيى عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد العهد وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال موسى بن عقبه: «وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيى بن أخطب أن يأخذلهم من قريش رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم وإن رجعوا ولم يناجزوا محمدا، فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التى كان فيها العقد بنى سعنة أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوان بن جبير وقال: انطلقوا حتى تأتوا هولاء القوم

١- مكان بجوار المدينة. ٢- مكان قريب من أحد ٣- سحاب لاماء فيه.

٤- لاتتحالفوا مع عدو عليه

٥- الزروة والغارب أعلى ظهر البعير والمعنى لم يزل يخادعه كما يخادع البعير.

تنتظروا أحق ما بلغنا عنهم، فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاء المسلمين[١]، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس، قال: فخرجوا حتى أتوهم فدخلوا معهم حصنهم فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم- يريدون بني النضير- ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأغضبوه، فقال له سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا، وما بيننا اكبر من المشاتمة، ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يابني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه، فقالوا: أكلت أير أبيك[٢] فقال: غير هذا من القول كان أجدر بكم وأحسن.

فانظر إلى هذا السخف من جانبهم، لم يكتفوا بنقض العهد، بل نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفحشوا في القول مع أصحابه الذين أوفدهم إليهم، ولم يأخذوا بنصيحة سعد بن معاذ في الوقت الذي نجد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصدق الشائعة، ويبعث من أصحابه من يستوثق له، ويوصيهم أن يعلنوا الخبر والوفاء، ويجهروا به، وأن يسروا ما يرونه من الشر ونقض العهد والخيانة حتى لا يؤثر في الروح المعنوية للمسلمين، ثم أقبل السعدان ومن معهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة[٣] أي كغدرهم بأصحاب الرجيع: حبيب وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين[٤].

١- حين يشعر بتخلي حليفهم من بني قريظة عنهم.

٢- انظر إلى الفحش في القول وبذاءة اللسان وسخافة التعبير.

٣- عضل والقارة قبيلتان من بني الهون بن خزيمة تآمروا على استدراج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم الرجيع وتظاهروا بالإسلام حتى أرسلهم معهم ثم قتلوهم ..... انظر الاصطفا جـ٢ ص ١٩٦ مرجع سابق.

٤- البداية والنهاية رجع سابق جـ٤ ص (١٠٤-١٠٥)

ذلك ما كان من بنى قريظة: استجابوا لأخيهم اليهودى حيى بن أخطب وتآمروا مع أحزاب الكفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفحشوا القول لأصحابه ولم يقبلوا تحذير سعد ولا نصيحته فى الوقت الذى كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون محاصرين فى المدينة حتى كاد رسول الله يصالح المشركين على ثلث ثمار المدينة ليفض الحصار حتى قضى الله عز وجل فى الأمر: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا[١]»

بل إن بنى قريظة فى أثناء الحصار المر أرسلوا عيونهم يتجسسون على عورات المسلمين ويتعرفون على مواطن الضعف تروى ذلك صفية بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله عليه وسلم فحين كانت هى وأمثالها من النساء والصبايا فى حصن لحسان بن ثابت إذ جاءهم رجل يهودى تقول صفية: «فمر بنا رجل يهودى فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت قريظة وقطعت ما بينها وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فعلمت ابنة عبد المطلب من أنه يطيف بمساكن الذرارى والنساء»، ومن أن بنى قريظة قطعت ما بينها وبين النبى صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل عين على المسلمين ويريد عورات النبى صلى الله عليه وسلم، قالت صفية لحسان: ليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا أتانا آت، وأن هذا اليهودى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل إليه فاقتله، قال حسان: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله عرفت ما أنا بصاحب هذا، ولما أر عنده شيئا احتجزت (أى شدت وسطها) ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته»[٢]

١- سورة الأحزاب الآية (٢٥).

٢- خاتم النبيين مرجع سابق ص (٩٣٦).

ومن جهة أخرى كان نعيم بن مسعود رضي الله عنه قد خذل بين المشركين وبني قريظة وأوقع فتنة بينهم بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل بنو قريظة وغطفان: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا... فأبوا عليهم وخذل الله بينهم، وبعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

قال محمد بن إسحاق: ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ومعه المسلمون، ووضعوا السلاح.....

المواجهة (الغزوة) كانت بأمر الله سبحانه :-

فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرا [1] بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا في الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

قال ابن إسحاق: ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أموالهم يقال لها بئر أنى، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، وقد كان حيي بن أخطب دخل معهم حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود: قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلا لا

١- الاعتجار : لف العمامة من غير وضع شيء تحت اللحية.

ثلاثا فخذوا بما شئتم منها، قالوا وما هى،قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل، وإنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم على هذا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا يخشى أنقتل عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء، قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم على هذه فالليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا- إلا من قد علمت- فأصابه ما لم يخف عنك من المسخ[١]؟فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما.

قال ابن إسحاق: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثب الأوس فقالوا: يا رسول الله: إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت- يعنون عفوه عن بنى قينقاع حين سأله عبد الله بن أبى- فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعدا فى خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيده فى مسجده، وكانت تداوى الجرحى، فلما حكمه فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم وكان رجلا جسيما جميلا، ثم أقبلوا معه على رسول

١- يشيرون بهذا إلى قوله تعالى «واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون» سورة الاعراف الآية ١٦٣. انظر سبب النزول وتفسيرها فى إبن عطيه جـ٦ ص ١٣٢.

الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: أحسن فى مواليك يا أبا عمر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك فيهم فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التى سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قوموا إلى سيدكم» فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: قد عم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: على من ههنا- فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(سماوات) قال ابن إسحاق: ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة النساء، والذرية فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار، وأمر بالأسارى الرجال أن يكونوا فى دار أسامة بن زيد، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق فخرج بهم إرسالا وفيهم عدوا الله حيى بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول: كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة[١].

١-البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ١٢٣ وانظر تهذيب سيرة لابن هشام ص ٢١١-٢٢٨، عون البارى بشرح صحيح البخارى جـ٦ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ وفقه السيرة ص ٣٢٣- ٣٤٣ ودراسة فى السيرة ص ٣٤٢-٣٤٩ ونور اليقين ص ١٦٦-١٦٩.

كما نرى من سرد تلك الوقائع يتضح لنا أن يهود بني قريظة كانوا مجرمي حرب وفق قوانين القتال المعاصرة، نقضوا العهد، وانضموا إلى الأعداء والحرب قائمة بين المسلمين والأحزاب، فكان نقضهم هذا خيانة عظمى، ولم يكن عقابهم العادل المكافئ سوى القتل.

وهذا الحكم مع شدته عادل لأنهم مقاتلون واستمرت لهم صفة المقاتلين إلى آخر لحظة." وعلى بن أبى طالب عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتلون وقال وهو يهاجمهم: لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم، فلما رأوا العزيمة فى على ومعه الزبير وأنهم مغلوبون لا محالة... طلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فهم ارتضوا المحكم فيهم، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه وقد فوض لهم، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا، ولقد حكم، وهو الذى ذهب إليهم[1] ليحول بينهم وبين نقض الميثاق فردوه ردا منكرا، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الإسلام وقتل أهله[2]".

النتائج :-

بفتح حصون بنى قريظة يكون المسلمون قد تخلصوا من آخر كتلة يهودية فى المدينة اختارت بنفسها- كسابقتها- أن تقف من الإسلام موقف الحقد والعداء، وأن تنقض ميثاقها مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ليستخدم أسلوب العقاب الجماعى إزاء اليهود الذين لم يروا منه كما قال سيدهم كعب بن أسد إلا وفاء وصدقا فكان لا يعاقب إلا القبائل التى نقضت عهدها تاركا القبائل الأخرى تمارس حريتها الدينية المدنية كاملة ما دامت على عهدها، وهكذا لم

١- أثناء حصار الأحزاب للمدينة وكان معه سعد بن عبادة.

٢- خاتم النبيين مرجع سابق ص ٩٤٩.

تؤد حادثة سوق الصاغة إلا إلى إجلاء مسببيها من بنى قينقاع، كما لم تؤد محاولة اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم إلا إلى طرد القائمين بها من بنى النضير. ولو ظلت بنو قريظة على عهدها ولم تمارس خياناتها الخطيرة فى معركة الخندق لكان لها شأن آخر غير المصير الذى انتهت إليه، هذا فضلا عن أن العقاب الذى كان ينزله رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصومه اليهود كان دوما متكافئا مع الجرم الذى ارتكبه هؤلاء الخصوم،فإذا سمح لكل من بنى قينقاع وبنى النضير بالجلاء إلى أى مكان يشاءون داخل الجزيرة أو خارجها بعد أن حقن دماءهم ولم يستخدم أسلوب القتل إلا إزاء أولئك الذين خانوا العهد فى ساحة الحرب، وتعاونوا مع الأعداء فى ساعة الشدة وهو العقاب الذى تمارسه جميع الدول والقوانين ضد الخائنين.

يقول مونتجمرى وات: كانت قد بقيت فى المدينة قبيلة عظيمة هى قبيلة بنى قريظة وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة ولكن مما لا شك فيه أنها كانت قد تمالأت مع المشركين وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من الخلف[1].

قال الندوى: وقد وافق ذلك الحكم قانون الحرب فى شريعة بنى إسرائيل، فقد جاء فى سفر التثنية الإصحاح العشرون ١٠، ١١، ١٢، ١٣:« وحين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفع الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك» وهذه كانت العادة المتبعة فى بنى إسرائيل فى عهد أنبيائهم كما جاء فى التوراة[2]»

١- هامش السيرة النبوية للندوى ص ٢٩٣.
٢ - السيرة النبوية - الندوى ص ٢٩٧.

ويقول بودلي في كتابه «حياة الرسول»: لو ترك محمد جريمة غدر بني قريظة من غير أن يعاقبهم عليها لم يكن للإسلام في جزيرة العرب بقاء، إنه لا شك أن عملية قتل اليهود كانت عنيفة ولكن لم يكن ذلك حادثا فريداً من نوعه في تاريخ الديانات، وقد كان لهذا العمل مبرر من وجهة نظر المسلمين، وقد تحتم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرة بعد مرة قبل أن يقدموا على غدر أو نقض عهد لأنهم عرفوا عواقبة الوخيمة وشاهدوا أن محمدا يستطيع أن ينفذ ما يريد»[1]

أما اليهود الذين لا ينتمون إلى تلك الكتل ذات الوجود السياسي والعسكري والاقتصادي فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحرياتهم في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وخير شاهد على ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفى ودرعة مرهونة عند يهودي[2]

خامسا : الموقف في خيبر:-

كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظر الفرصة المواتية لضرب التجمع السياسي الأخير في خيبر والمواقع المجاورة بسبب ما كانت تمارس ضد الإسلام، فمن خيبرا نطلق اليهود لدعوة القبائل العربية وتحزيبها ضد المسلمين، ومنها خرج حيي بن أخطب ودفع بني قريظة إلى الانتفاض في اللحظات العصيبة، وقد غدت خيبر بمرور الأيام كملجأ يأوي إليه اليهود المبعدون عن المدينة ينتظرون الفرصة المواتية للانتقام من الإسلام واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم منها..... وقد اتضح هذا في الأيام القلائل التي أعقبت هزيمة بني قريظة... حيث اتصل اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسألوه الرأي....فأجابهم: نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد... ونستجلب يهود تيماء...وفدك...ووادي القرى ولا

١- المرجع السابق ص ٢٩٩.　　٢- دراسة في السيرة ص ٣٤٩.

نستعن بأحد من العرب.... فقد رأيتم فى غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب.... ثم نسير إليه فى عقر داره..... فقالت اليهود: هذا الرأى. فإذا أضيف إلى ذلك أنهم كانوا يسعون إلى التحالف مع بنى سعد...ومع غطفان ضد الإسلام ورسوله علمنا أنهم خطر يهدد المسلمين من جهة الشمال.

ولهذه الأسباب أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ لقتالهم، ومهد لذلك بإرسال مجموعات من فدائيّ الأنصار لقتل زعمائهم..... ومما ساعده على ذلك عقد صلح الحديبية مع قريش فأمن بذلك خطرهم وجانبهم، وكان الله عز وجل قد بشر بها فى سورة الفتح بعد صلح الحديبية... وقد سار رسول الله صلى الله عليه وسلم صوب خيبر على رأس حملة استنفر لها الراغبين فى الجهاد فحسب دون الغنائم .

قال ابن إسحاق: وحدثنى من لا أتهم عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح فإن سمع آذانا أمسك وإن لم يسمع آذانا أغار....فنزلنا خيبر ليلا فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح لم يسمع آذانا فركب وركبنا معه، وركبت خلف أبى طلحة، وإن قدمى لتمس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم[1] ومكاتلهم [2]، فلما رأوا رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا: محمد والله، محمد والخميس[3]؛ معه فأدبروا هربا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين [4]، وكان

١- المساحى جمع مسحاة : وهى الفأس- أداة من عدة العمل.

٢- المكاتل جمع مكتل : وهى (القفة) (الكبيرة) زنابيل يحمل فيها الثمر.

٣- الخميس : الجيش سمى بذلك لأنه كان يتكون من خمس فرق.

٤- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ١٨٧.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مرض فأعطى الراية أبا بكر فلم يستطع فتحها، فأعطاها عمر..فلم يستطع فتحها...فأعطاها عليا ففتحها الله على يديه. وروى البخاري عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر «لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله قال:فبات الناس يدوكون[1] ليلتهم... أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يرجوا أن يعطاها فقال: أين على بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكى من عينه..قال: فأرسل إليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية، فقال على: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه.. فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم[2].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما خرج لقتالهم ولا حرص على ذلك ولا أوصى أصحابه بهذا وإنما كانت غايته الأمن من خطرهم، والوقاية من شرهم... ودعوتهم للإسلام... فإن هم اهتدوا وأسلموا فذلك الخير كل الخير، وإلا فليأمن جانبهم ويحذر شرهم ومما يؤكد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انتصر عليهم وأصبحت جميع أموالهم تحت يديه صالحهم على النصف فى ثمار خيبر على أنه إذا شاء أن يخرجهم منها أخرجهم.

قال إبن إسحاق: وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر فى حصنيهم الوطيح والسلالم[3] حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل

١- يدوكون ليلتهم : باتوا فى اختلاط ودوران وقيل: يذكرون.

٢- البداية والنهاية جـ٤ ص ١٨٦ - ١٨٧.

٣- كانت خيبر تشمل على سبعة حصون هى: ناعم، القموص، الشق، النطاة، السلالم، الوطيح، والكتيبة، وكان الوطيح والسلالم آخر حصون خيبر فتحا لأنها كانت منيعة وطال حصارها ١٤ يوما، أنظر عون البارى جـ٦ ص ٢٧٥ وما بعدها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها الشق ونطاه والكتيبة وجميع حصونهم إلا من ذينك الحصنين فلما سمع أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل، وكان ممن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم، في ذلك محيصة بن مسعود أخو حارثة، فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم في الأموال على النصف وقالوا له نحن أعلم بها منكم وأعمرلها، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف، على أنا إذا اشتنا أن نخرجكم أخرجناكم، وعامل أهل فدك بمثل ذلك[1].

ولا يتورع اليهود عن نقض العهد والخيانة حتى وهم في أشد الحاجة إلى الوفاء.... فهاهم يعاهدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصرهم ومتمكن منهم على أن يفك أسرهم وله جميع أموالهم...ثم ينقضون ذلك ويخونون.

قال الواقدي: ثم تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأجبة والوطيح والسلالم بحصني أبي الحقيق وتحصنوا أشد التحصن، وجاء إليهم كل من كان انهزم من نطاة إلى الشق فتحصنوا معهم في القموص وفي الكتيبة وكان حصنا منيعا وفي الوطيح والسلالم وجعلوا لا يطلعون من حصونهم حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصب المنجنيق عليهم.. فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر يوما، نزل إليه ابن أبي الحقيق فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم ويخلون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان لهم في الأرض الأموال والصفراء والبيضاء[2] والكراع والحلقة وعلى البز إلا ما كان ظهر على ظهر إنسان يعني لباسهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتم شيئا فصالحوه على ذلك.

١- البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص ١٩٩.
٢- الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة.

ولهذا لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك[١] الذى كان فيه أموال جزيلة تبين أنه لا عهد لهم فقتل ابنى أبى الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود منهم والمواثيق[٢]وكذلك محاولتهم اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم بعد الصلح والمعاهدة كما روى البخارى عن أبى هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم» وكانت التى أهدتها وقدمتها امرأة سلام بن مشكم الذى قتل وروى الإمام أحمد بعد ذلك: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إجمعوا لى من كان ها هنا من يهود، فجمعوا له، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إنى سائلكم عن شئ فهل أنتم صادقى عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبتم بل أبوكم فلان.... قالوا: صدقت وبررت فقال: هل أنتم صادقى عن شئ إذا سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهل النار؟ فقالوا: تكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لا نخلفكم فيها أبدا ثم قال لهم: هل أنتم صادقى عن شئ إذا سألتكم؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم.قال: هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟ قالوا: نعم، قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك[٣]

فانظر ماذا يفعلون، يدعون أنهم يبحثون عن صدق النبى صلى الله عليه وسلم ونبوته ولا يبحثون عن أتباعه والاهتداء بهديه وقد تبين صدقه ونبوته.

سادسا : الموقف مع اليهود المتفرقين :-

وكان يوجد بجوار خيبر عدة قبائل من اليهود القلائل يعيشون فى عدد من القرى

١- المسك : الجلد.

٢ - البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ ص٢٠٠.

٣- البداية والنهاية مرجع سابق جـ٦ ص ٢٠٩.

والبلاد...... فلما علموا بسقوط خيبر سارع بعضهم بإبداء الرغبة في مصالحة الرسول صلى الله عليه وسلم على مثل ما صالح عليه يهود خيبر، فصالحهم... من هؤلاء: يهود فدك، تيماء، الذين صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وأقاموا في بلدهم[١].

أما يهود وادى القرى فلم يقبلوا الصلح إلا بعد الحرب والقتال والهزيمة، وبذلك فتحت وادى القرى عنوة لا صلحا[٢] .

محصلة ذلك - النتائج -:

بسقوط خيبر والمواقع المجاورة لها تم تصفية آخر تجمع يهودى لعب دوره فى مواجهة الإسلام وخصومة أهله وقضى قضاء تاما على القوى السياسية والاقتصادية ليهود الحجاز وغدت كلمة الإسلام هى العليا فى معظم مساحات الجزيرة العربية إلى أن تم فتح مكة فأصبحت كلمة الإسلام هى العليا فى جميع ربوع الجزيرة .أما باقى اليهود فى أطراف الجزيرة العربية من أقصى الشمال فقد كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمنهم على أموالهم وأراضيهم ودياناتهم وأن الأمراء منهم، ولا معاداة بينهم، وأن لهم ذمة الله ورسوله، وذلك فى مقابل جزية يدفعونها كل عام، فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم ليحنة بن رؤبة ملك إيلة: « بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله تعالى وذمة محمد النبى ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر». وكتابه أيضا إلى بنى جنبة الذين كانوا يقيمون على خليج العقبة قريبا من أيلة: «فقد نزل على

١- خاتم النبيين مرجع سابق ص (١٠٥٥).

٢- المرجع السابق ص (١٠٧١).

رسلكم راجعين إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون...لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه، وإن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم[١] وربع ما اغتزل نساؤكم، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم، ويعفو عن مسيئكم، وأن ليس عليكم أمراء إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله[٢]».

وكتب مثل ذلك- في الأمان والذمة- لبنى عاديا من بنى عريض وأهل جرباء وأذرح ويهود البحرين.

نص كتابه صلى الله عليه وسلم لأهل جرباء وأذرح: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب محمد رسول الله لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله تعالى وأمان محمد صلى الله عليه وسلم، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ومائة أوقية، وأن الله تعالى عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين»[٣].

وبذلك تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تحويل هذه التجمعات اليهودية فى أقصى الشمال إلى جماعات من المواطنين فى الدولة الإسلامية يدفعوا لها ماتفرضه عليهم من ضرائب نقدية أو عينية ويحتمون بقوتها وسلطانها، ويتمتعون بعدلها وسماحتها. وبهذا استقر الإسلام وسكت اليهود إلى حين كما هى عادتهم وطبعهم فما أن توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدأوا يسعون إلى الانقضاض على الإسلام والمسلمين يريدون أن يستردوا مجدهم وسيادتهم، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب واشرأبت اليهود

١- عروككم : مراكبكم.　　٢- دراسة فى السيرة ص ٣٥٨.

٣- خاتم النبيين مرجع سابق ص ١٣٠٦- ١٣٠٧.

والنصرانية ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم الشاردة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على أبى بكر[1]

****

وخلاصة ما تقدم يتضح أن العلاقات الإسلامية اليهودية مرت بأطوار عدة، كان لكل طور منها ميزاته.... ففى مرحلة ما قبل الهجرة والبعثة كان اليهود يستفتحون بالنبى صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا ويتباهون به ظنا منهم أن يكون من بينهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وكانوا يخيفون به أهل المدينة ويقولون لهم نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث حاولوا القضاء عليه وتأليب المشركين.

وفى بدء الهجرة حاول النبى صلى الله عليه وسلم اكتسابهم وأمن جانبهم، فعاهدهم على السلام والأمان وحماية المدينة.... ولكنهم كانوا ينقضون العهد والميثاق، فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهر المدينة من كل فئة منهم تبدأ بالعداوة وتعلنها.... فبدأبنى قينقاع..ثم بنى النضير...ثم بنى قريظة، ولم يؤاخذ فئة بجريرة أخرى....ولا قبيلة بنقض قبيلة أخرى...ولكنه كان ينتظر ويجرب فى كل مرة حتى يتأكد من نقضهم العهد فلا يجد بدا من حربهم...وبعد أن حارب رؤساءهم وزعماءهم وتكتلاتهم القوية....كاتب الضعفاء منهم وعاهدهم على الأمان.....والسلام....وطرح العداء.....وإقامة الحب والتعاون مقامة. وفى عصرنا الحاضر نحاول ونكرر ما سلف ونفتح أبوابنا ونمد أيدينا بالسلام لغد أفضل....والعيش فى أمان فهل تنجح المحاولات؟ هذا مانرجوه وبالله الهداية والتوفيق. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أ.د/ إبراهيم عبد الرحمن عثلم

أستاذ الدعوة المساعد/ أصول الدين المنوفية.

جامعة الأزهر

١- تهذيب سيرة ابن هشام مرجع سابق ص (٤٠٤).